المرأة المتصوفة في الجزائر

الأنثى ولية: حالة المرابطة تركية

أ.مناد

سميرة

استاذة مساعدة بقسم علم الاجتماع مستغانم و باحثة بمخبر حوار الحضارات

إذا انطلقنا من أن وراء كل فعل اجتماعي فاعل اجتماعي وأن هذا الفاعل يعيش في بيئة معينة داخل إطار اجتماعي وثقافي حدوده الجماعة أو الجماعات التي ينتمي إليها فإننا نصل إلى ضرورة فهم هذا الإطار في ملامحه .هذه الملامح التي نحن باحثون عنها ،بلا شك ،فيما روي لنا وفيما شاهدناه فعلا عن هذه المرأة الخارقة. و يعود هذا البحث الميداني لسنة 2001 حيث قامت الباحثة بزيارة زاوية المرابطة تركية وجمعت عنها معلومات تحكي سيرتها الذاتية .

زاوية "لالة تركية " زاوية تأسست ما بين سنة 1918 إلى سنة 1923 كانت مقصد المعوزين والفقراء بالإضافة إلى كونها مدرسة قرآنية تنشر الوعي الديني خاصة خلال الاستعمار حيث لعبت دورا في توعية المواطنين للمحافظة على الهوية الوطنية وخلق روح الاتحاد والتآلف بين الناس والمصالحة بين القبائل والأعراش .

- **اسم الزاوية** : لالة تركية باسم مؤسستها الأولى " لالة تركية ".
- **الموقع** : بلدية "الرشايقة" ولاية تيارت
- **الطريقة:** الطريقة "الرحمانية"
- **الممتلكات الوقفية للزاوية:** أراضي مساحتها حوالي 05 هكتارات بها بناءات ومنقولات – بيوت للزوار- مدرسة قرآنية
- قديمة – مسجد – بئر وخزان مائي – مطعم ومرقد – أفرشه وأغطية .
- **مصادر تمويل الزاوية** : لاشيء.
- **التسيير:** تسير عاديا من طرف حفيدها السيد "دحماني علي" الذي واصل المسيرة حيث قام بترميمات عديدة للزاوية – بناء سياج حول الزاوية – بناء مدرسة جديدة – تشجيع الشباب على حفظ القرآن الكريم، حيث تظم الزاوية حاليا (سنة 1997) حوالي 100 طالب منهم 80 طالب يتمتعون بالنظام الداخلي و 20 طالب خارجي، إلا أن الزاوية تحتاج إلى تدعيم مادي نظرا للنفقات العديدة وانعدام لمصادر الشيء الذي جعلها تحتاج إلى التدعيم أكثر ومد يد المساعدة لها لأنها وسيلة لنشر العلم وتثقيف العقول وتهذيب النفس خاصة الراغبون في طلب العلم والعمل الصالح.

من هي المرابطة تركية؟ هي ابنة الحاج (علي طاهي) (والسعدية ياحي) من مواليد مدينة سيدي عيسى سنة 1912(*)، تعلمت القرآن في مسقط رأسها ثم في منطقة تدعى " أولاد إدريس" في مكان أصبح يدعى "جنان لالة تركية" قرب سور الغزلان .

وهي أخت لثلاث بنات هن " خيرة"، "صفية"، "يمينه " وأخ واحد هو "عبد المالك " وقد توفي أثناء الثورة التحريرية، وقد تزوجت من ابن عمها وأنجبت منه خمس بنات وابن واحد، أما البنات فقد توفيت اثنتان وبقيت ثلاث هن على الترتيب من الكبرى إلى الصغرى " يمينة"، "الهوجة"، و"فاطمة" الملقبة (ببنت يحي) "، وأما الابن فهو "حميدة " وقد توفي سنة 1976 بعد حادث مرور.

تبدأ المغامرة الحقيقية للمرابطة تركية عندما بلغت من العمر 15 سنة وقررت الهرب من بيتها العائلي فرارا من تسلط الأب وطغيانه، فهو كما يروى عنه : "كان بينها وبينو حرب... باباها واعر ... هدت وهربت ... باباها راجل ما يهدروش معاه... كلمتو هي اللي تجوز ... حتى راجل ما كان يقدر يوقف قداموا..."

فقد كان الأب قاسيا وغير مؤمن وغير مقتنع بأن لابنته علاقات ما فوق طبيعية، وأنها ستصبح امرأة أسطورية، وليست مجرد امرأة "عادية" كما كان يعتقد هو ومن حوله لمدة معينة من الزمن .

وهذا ما يؤكده أحد أحفادها في قوله "كان جاهل ... ما يمنش ... أو مبعد باش إقتنع ..." وفعلا فرت المرابطة تركية من البيت لتتجه مباشرة إلى حاسي الرمل أين بقيت مدة طويلة هائمة في الصحراء رفقة خادمها " ضو " أو " قمر " .

– ويختلف الرواة كثيرا في الاسم الذي كانت تحمله الخادمة وقد كانتا تنامان ليلا في خيمة تتحول صباحا إلى غزال يحملها في أرجاء الصحراء.

وفي أحد الأيام كان أحد الأولياء الصالحين المسمى "سيدي أعمر" ينوي السفر إلى "المغرب الأقصى" فذهب إلى المرابطة تركية " ... باش تسرحوا..." لكي تبارك له في سفره ذاك، وعندما خرجت المرابطة تركية من خيمتها لمقابلته وعادت ثانية وجدت أن خادمتها قد اختطفت من طرف الجان ولم تظهر لحد الآن، وكانت تردد لأبنائها وأحفادها مرارا أنها مشتاقة لرؤيتها كثيرا، وكم تتمنى أن تراها قبل أن تموت .

وتجدر الإشارة إلى أن الأسطورة تبدأ قبل ولادة المرابطة نفسها إذ ذكرت المرابطة في حوار صحفي أجراه معها الصحفي "سليمان جوادي" من "جريدة الشروق العربي " سنة 1993 أن : "سيدي عيسى الدنداني دندن في بطن أمي وهي عز باء لم تتزوج بعد .. وسيدي عيسى ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وسيدي عيسى صاحب كرامات وبراهين كثيرة ، فحبي له واعتزازي بالأنساب إليه جعل الناس تقدرني أكثر .. فأنا لو لا جدي لما كنت شيئا ذا بال ..."(1).

وقد سافرت المرابطة كثيرا وكانت أطول مدة قضتها في "المغرب الأقصى" وانتقلت بعدها إلى حاسي مسعود ثم الشلف فالأغواط وبالتحديد في "آفلو" ثم رجعت إلى "سعيدة" وأقامت في مكان يدعى الآن " بخلوة لالة تركية " ثم انتقلت إلى " الرشايقة " بولاية تيارت أين مكثت حتى وفاتها في 1994 فلماذا منطقة الرشايقة بالذات؟

تحكي الأسطورة أن الولي الصالح "سيدي عيسى الدنداني" كان مارا بهذه المنطقة فوق جواده، وعندما هم بصعود أحد الجبال "ترشق" انغرست رجلي الجواد في الأرض دون أن يسقط هو ولا جواده، ومنذ ذلك الوقت سميت المنطقة ب"رشاق سيدي عيسى" ومع مرور الوقت أصبحت المنطقة تسمى ب"الرشايقة" وحسب سكان المنطقة فإن آثار الانغراس مازالت واضحة ويخرج منهما الماء.

وانتقلت المرابطة إلى الرشايقة لتتم المسيرة التي أرادها لها جدها، واستلمت عند وصولها أمانة كانت مودعة عند خادم أحد الأولياء الصالحين وقد مكثت في بداية الأمر على حدود المدينة كانت تتردد على مزرعة أحد المعمرين الفرنسيين ليبيعها إياها ولكنه كان يرفض كل مرة حتى بدأت تظهر له المرابطة في أحلامه فيبيت في أرق شديد طيلة أيام عديدة ووصل الأمر حتى إلى نمو بعض الأشجار الغريبة داخل غرف بيته مما أشعره بالرهبة والخوف الشديدين، فهرول الرجل مذهولا ومعترفا بقدراتها الخارقة ومنح لها مزرعته وبيته المرفق بها كهدية للمرابطة رافضا أن يأخذ عليهما أدنى ثمن "زارها القاوري بالفيرما أنتاعو .....".

وانتقلت المرابطة إلى بيتها الجديد الذي حولته إلى زاوية يتعلم فيها الطلاب القرآن الكريم وتقدم المعونات للمعوزين، ويقصدها كل من يطمع في بركة المرابطة.ولقد أضافت المرابطة إلى زاويتها بعض المنشآت خاصة بعد زيادة الوفود عليها، ومن بينها غرفة كبيرة بنتها سنة 1954 ومسجد صغير ومدرسة قرآنية صغيرة أيضا وبنى لها خادمها قبة كبيرة ليدفنوها فيها بعد موتها وأهم شيء في تلك الزاوية هما شجرتان مباركتان تحضر المرابطة نقيعا من أوراقهما يقدم للزوار ليشفيهم مما هم فيه من أسقام .

والملاحظ أن المجال الاجتماعي الذي عاشت فيه "المرابطة" هو المجتمع الجزائري التقليدي، الذي كان يتميز بالقبلية أين يعيش الأفراد ضمن أسر تربطهم صلات قرابية – دموية – وينتسب هؤلاء جميعا إلى الأب الذي كان يمارس سلطته ويفرض أوامره عليهم وذلك بما تمليه طبعا الثقافة السائدة في بيئته بمعنى أن قيم وعادات المجتمع وتقاليده تشكل الضمير الجمعي الذي يتبناه الأب بوعي أو بغيره وبالتالي يرتبط التمثل الاجتماعي لذلك الضمير الجمعي بسلطة الأب داخل الأسرة وبعلاقته مع الفاعلين الآخرين، ويختلف هذا التمثل تبعا لوضعية الفاعلين في المحيط الاجتماعي من ابن وابنة وزوجة وأخت...الخ. وهكذا كانت سلطة الأب المتشددة مبعثا للرفض لدى الابنة (المبحوثة) التي آثرت الرحيل والهرب من البيت لإتمام رسالة كانت تعتقد أنها لن تؤديها إذا ما بقيت في ذلك المجال الاجتماعي.

وعند تطبيق قرار المغادرة فعلا تبدأ مسيرة المرأة الخارقة ذلك أن الأسطورة تحكي لنا وتؤكد أن المرأة ظلت هائمة في الصحراء مدة طويلة من الزمن وبين المجال الجغرافي (الصحراء) والمجال الاجتماعي تفاعل وانسجام وأحيانا صراع. فكيف ذلك يا ترى؟... إن المجال الجغرافي الذي فرت إليه "المرابطة" والذي هو الصحراء يتميز بأنه رقعة شاسعة ومتشابهة في كثير من المظاهر الطبيعية وحدودها غامضة لذا يصعب أن يهتدي فيها المرء إلى الشمال أو الجنوب ،أو حتى الشرق أو الغرب. كما أن مناخها متطرف فالحرارة الشديدة صيفا تؤدي بسكانها إلى استخدام الرمال الساخنة بفعل الشمس لإنضاج بعض أنواع الطعام كالخبز مثلا والبرد القاسي شتاءا، الغير

محمل غالبا بالأمطار كل هذه العوامل تؤدي إلى تصور الحياة في الصحراء على أنها قاسية وشديدة وينعكس هذا التصور حتى على الحيوانات فيعتقد أن أغلب الزواحف السامة والوحوش تعيش فيها لهذا تنتشر الكثير من الحكايات الغريبة عن بعض الحيوانات المتوحشة التي تنتشر في الصحراء. وقد يتساءل القارئ لهذه الصفحات عن سبب تطرقنا للجانب الجغرافي في تحليلنا السوسيولوجي "لظاهرة المرابطة تركية"؟.

قد تكون الإجابة عن هذا السؤال بسيطة لكنها تأخذ حيزا كبيرا من الأهمية في نظرنا. ذلك أن للجانب الجغرافي أثر هام في تكوين المجال الاجتماعي والثقافي للمجتمعات هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن أغلب الرموز الاجتماعية تتغذى من الرموز الجغرافية التي تعيش فيها.

وأهم من كل ذلك أن تصور الناس لقوة "المرابطة" وخارقيتها نبع من تصورهم لصعوبة الحياة التي واجهتها وخطورتها. "... كانتا تنامان ليلا في خيمة " تتحول صباحا إلى غزال يحملها في أرجاء الصحراء..."ولهذا فبقاء المرابطة في الصحراء لمدة طويلة بما في ذلك من مخاطر حيث ينتظر نفاذ الزاد والماء ، والموت هنا حتمية لا مفر منها ناهيك عن التعرض لمخاطر الوحوش، من هنا فإن بقاؤها على قيد الحياة رغم كل ما تعرضت له دليل على قوة المرأة .

فماذا كانت ستفعل لو تاهت في الصحراء ؟ ومن أين سيأتيها الخلاص ، إذا أتى؟... لقد نجت المرابطة فعلا وأتاها الخلاص فمضت نحو إتمام مسيرتها التي بدأتها منذ زمن وهذا الإيمان الراسخ لدى المؤمنين بالمرابطة وبخوارقها يضفي على المرأة نوع من التقديس .

وإذا كان من السهل التعرف على المقدس والمتمثل هنا في المرابطة تركية فإنه من الصعب تعريف صفة القداسة التي تتميز بها ذلك لأن وصفها وعمق تأثيرها مختلف من شخص لآخر ومن منطقة لأخرى بحسب قربها وبعدها عن مكان تواجد المرابطة . والملاحظ أن المرابطة ليست مقدسة في حد ذاتها بل أن مشاعر الناس واتجاهاتهم نحوها هي التي أضفت عليها نوعا من القداسة.

إذ أن اتجاه الناس نحو المرأة سواء باعتقادهم بكرامتها أو بتأثرهم بمقولاتها أو بأخذهم لمشورتها يشكل نوع من الولاء لها يعتمد على الإيمان الحقيقي عن طريق المشاعر فيتأكد وجودها ويصبح لها مكان فعليا في عقول التابعين لها (المؤمنين بها)، وما يساعد على ترسيخ الفكرة (فكرة القداسة) أكثر في أذهان جماعة المؤمنين هو الاحتفالات والطقوس المتمثلة أساسا في الزار(الوعدة) الحضرة والتي بفعل تكرارها تحقق غاية هذا الفعل المتمثلة في ترسيخ الاعتقاد بها.

إن رؤى الأولياء الصالحين وأحلامهم كثيرا ما تكون عبارة عن توجيهات غيبية، تحمل في طياتها أسرارا تخترق المسافات والأزمنة . والمرابطة تركية كذلك يستبشر من رآها في المنام خيرا فإن كانت امرأة حاملا ورأتها في منامها هي أو أحد أفراد أسرتها فإن مولودها إن كانت أنثى ستسمى بدون شك أو تردد"تركية". ورؤيتها إيذان بالبركة والخير والعكس إذا رآها أحدهم في حال لا تسر فلا يتوان لحظة في الذهاب إلى زاويتها والتبرك بها وطلب

العفو والسماح على عمل أغضب المرابطة حتى وإن لم يكن قد اقترف شيئا فالمهم هو رضا المرابطة عنه بسبب أو بدونه.

ومن بين ما يروى عن المرابطة رؤيتها لرجل أسود يسكن مدينة أدرار بأنه سيأتي عندها وستقابله ويكون هو مساعدها الأكثر وفاءا والتزاما خاصة في تحضير نقيع الأوراق المباركة التي تقطف من أغصان شجرتي "الكاليتوس" الكبيرتين الموجودتان في أحد أركان الزاوية.

ويقال أن الرجل أيضا كان قد رآها في منامه فجاء يبحث عنها سنة 1955 وقد تعرفا على بعضهما قبل أن يتقابلا وجها لوجه لأنهما كانا يتصلان ببعضهما من خلال أحلام ورؤى كل منهما.

وقد بقي هذا الرجل في زاوية المرابطة وتزوج وأنجب سبعة أولاد بقي منهم أربعة على قيد الحياة وعندما توفي أخذ أبناءه الحرفة من أبيهم وأصبحوا يحضرون الوصفة كما شاهدوه يفعل.وفي حديث سابق كنا أشرنا إلى تأثر المعمر الفرنسي الذي أهدى بيته للمرابطة بسبب الأحلام التي كان يراها كل ليلة والتي تدعوه إلى منح المنزل للمرابطة . ويذكر أحفاد المرابطة العديد من الرؤى والأحلام التي ارتبطت بحياة هذه المرأة نذكر منها مثلا رؤيتها لوفاة ابنها "أحميدة" والتي كانت تفاصيلها كالآتي:

فقد رأت المرابطة فيما يراه النائم "أن جماعة من الرجال جاءوا إليها وطلبوا منها أن تعطيهم كبشا سمينا من قطيعها فقالت لهم أنه ليس لديها إلا كبش واحد فكيف تعطيهم إياه وتبقى بدونه، فأخذوه وقطعوا رأسه". وفي الصباح عندما نهضت جاءت زوجة ابنها لتوقظ أبناءها للذهاب إلى المدرسة فقالت لها المرابطة لا تقولي لهم اذهبوا إلى المدرسة بل قولي لهم "حميدة مات..."

وبعد لحظات جاءهم نبأ وفاته في حادث مرور، وعند زيارتنا لزاوية المرابطة قال لنا إمام المسجد الموجود في الزاوية بأنه في اليوم الذي سبق مجيئنا كان قد حضر إليه رجل رفقة ابنته المكفوفة وقام الإمام بقراءة بعض القرآن على رأس البنت ورقاها بالرقية الشرعية ثم انصرفا إلى حالهما وفي صباح اليوم التالي جاء والدها باكرا ليشكر المرابطة "تركية" التي أشفت له ابنته حيث قال الرجل أنه بعد ذهابهما من الزاوية شاهدت ابنته في منامها أن المرابطة "تركية" تغسل عينيها بالماء وما إن أصبحت حتى عاد نور عينيها وأبصرت الحياة بعد أن فقدت الأمل نهائيا في الشفاء ؟ ...

وكانت رسائل المرابطة "تركية" لمن يقصدها غالبا تصلهم عبر أحلامهم فهي ترشدهم في منامهم بما يجب أن يفعلوه حيال المشاكل التي يعانون منها، وغالبا ما يفسر هؤلاء الناس رآهم حسب ما يعتقدون أنه خير لهم.

فإذا رأوا وجهها ضاحكا مستبشرا فذلك هو الفوز العظيم والخير العميم الذي جاءهم، وهو دليل على قرب الفرج والسعادة إلى ذلك البيت.بينما إذا كان وجهها عابسا، فذلك دليل على قدوم مالا يحمد عقباه. وأن هناك خطأ ما قد ارتكبه صاحب الحلم، وأفضل وسيلة لتجنب الشر الذي قد يحمله المستقبل والذي كان قد دل عليه ذلك الحلم هو التوجه فورا إلى المرابطة والتبرك بها والاستفسار عن مغزى الحلم ودلالته.

كما أن القصائد التي تتغنى بالمرابطة تركية.تشير في أغلبها إلى الأحلام التي يرونها حول هذه المرأة فنجد على سبيل المثال : "البارح شفت منام ...جاني أحميدة حوام...ولد الروحانية" فالقصيدة كلها مبنية على حلم كانت بطلته المرابطة تركية.

إن أكثر ما يزيد الناس تعلقا وتقديسا للمرابطة تركية هو إتيانها لأمور خارقة للعادة، وغير مألوفة لديهم ،وهي كرامات تؤتيها المرابطة تأكيدا على قدراتها الما وق طبيعية، وقد رويت لنا الكثير من الروايات حول كرامات المرابطة تركية إلا أن أحفادها أنكروا بعضها و لذلك لم نورد إلا ما اتفق الكثير من مقربيها أنه وقع فعلا.وكثرة الروايات والرواة إن دلت على شيء فإنما تدل على شدة انبهار الناس بأعمال هذه المرأة مما جعلهم يطلقون العنان لخيالهم ولا يتركون شيئا خارقا إلا نسجوا حوله القصص ونسبوه إليها.

اختلفت الروايات كثيرا حول هذه القصة التي تدور حول رجل تحول لامرأة فبينما يقول البعض أنها تخص رجلا يدعى "الطيب بن عبد الرحمن" والذي كان مغرورا وغير مؤمن بقدراتها بحجة أنها امرأة وستبقى كذلك ولا يمكن أن تصدر عنها كل هذه الخوارق، وقد ذهب به الغرور إلى درجة تحدي أصحابه أنه سيثبت لهم أنها امرأة عادية جدا ،وقد حذره أصحابه من عواقب ما ينوي فعله إلا أنه أصر في كبرياء وإلحاح شديدين وعندما كان جالسا أمامها قال لأحد أصحابه :"أنظر إلى ساقها كم هي جميلة" .وعندما سمعت المرابطة تركية ذلك غضبت كثيرا وأنزلت غضبها عليه، فلما هم الرجل بالوقوف وجد تحته دما يشبه دم الحيض فعاد للجلوس ثانية وبقي يخدم المرابطة وكأنه امرأة يضع الكحل، والحناء ويرتدي ملابس النساء ويطبخ معهن حتى رفعت غضبها عنه بعد أن أحضر والدا الشاب أصحاب الجاه للمرابطة.

وظل الرجل يتردد على زاوية المرابطة مرارا بعد أن عاد إلى طبيعته الأولى[*] هو وزوجته وأطفاله. ينما جاء في مقال "سليمان جوادي" أن "الطيب كان رجل وسيما وجميلا أصيب بغرور كبير وأصبح يتباهى على أصحابه وهم في سن الشباب بتمكنه من قلوب النساء والظفر بهن بمجرد إشارة منه وذهب به الغرور إلى حد أترابه ومراهنتهم على أنه بإمكانه ممارسة الجنس مع هذه التي يدعون أنها مرابطة وأنها صاحبة كرامات ويقسمون برأسها، حذره أصحابه كثيرا ونصحوه بعدم التعرض للمرابطة بأي مكروه لكنه استمر في تحديه لهم وكلما ازدادوا تحذيرا ونصحا ازداد غرورا وتحديا.

وذهبوا لزيارة المرابطة في زاويتها وكمن أوحى للمرابطة بما يبيت هذا الفتى الوسيم لها ولسمعتها، فقد غضبت وطلبت منه الانصراف، ولما حاول الطيب القيام كأصدقائه وجد أنه يجلس على دم يشبه دم الحائض وخجلا من أصحابه جلس ومكث في زاوية المرابطة مدة 6 سنوات وهو يرتدي كما ترتدي النساء الكثيرات الموجودات في خدمتها يضع الحناء ويطبخ ويزغرد أيضا ولم تفكه المرابطة من وثاقه حتى أتت أمه مبدية الطاعة والولاء للمرابطة وجدها سيدي عيسى"[2]

ويختلف الرواة أيضا في المدة التي قضاها الطيب في هيئته الأنثوية تلك فبينما يقول الكثيرين أنها ثمان سنوات نجدها محددة في المقال السابق بست سنوات، ولكن يذكر أحد أحفادها أنه تخلص من غضب المرابطة عليه بعد ثمان أشهر فقط لكنه لم ينصرف وبقي في خدمتها حتى وفاته.

وتجدر الإشارة إلى أن المرابطة قد صرحت للصحفي "سليمان جوادي" أنها أنزلت عقوبتها "بالطيب" عقابا لأمه التي تحدتها فأرادت المرابطة أن تثبت لها قوتها وهنا يبرز التناقض في هذه الروايات وقد يستحيل أحيانا معرفة التفاصيل الحقيقة لهاته الواقعة خاصة بعد وفاة بطلها "الطيب".

كانت المرابطة تركية تردد "يذا جيت بنيتك تشرب غير الماء تبرا" لكن هذا لا يمنع من أنك تحصل على بعض ما تشتهيه (حلوى، سكر، تمر "أنت وواش كاين في قلبك") فيدي المرابطة كتلة من العطايا والبركات إذ يكفي أن تضع أصبعها في أناء به ماء ليتحول ذلك الماء إلى سمن صافي أو عسل أو مرق لذيذ...

وهناك العديد من القصص التي تروي عن بركة يدي المرابطة كقصة أحد الرجال الفقراء الذي أخذ معه المرابطة لتحل له مشكلا كان يتخبط فيه ولم يكن يملك في بيته حفنة طعام (يقصدون الكسكسى في أغلب الأحيان) وكان الرجل يملك "تيسا" واحدا فقط وقد أجبر على ذبحه واستلف حفنة كسكسى ليحضر العشاء للمرابطة. إلا أنه حدث ما لم يكن في الحسبان ، فما إن سمع أهل القرية بوجود المرابطة في بيته حتى توافد عليه أغلبهم مما جعل الرجل في حيرة من أمره حول الكيفية التي سيطعم بها ذلك الكم الهائل من الناس، وعرفت المرابطة بسرها الإلهي العظيم ما يجيش بصدر الرجل فأمرته أن يحضر لها الطعام الذي حضره لها وحركته قليلا بيدها فإذا هو يملء العديد من القصاع أكل منها الحضور وبقي منها الكثير .

وقصة اخرى لمسدسات تطلق الماء بدل الرصاص حدث هذا أثناء الثورة التحريرية الكبرى إذ كان هناك بعض المجاهدين الذين تخفيهم المرابطة في بيتها ، فجاء العساكر الفرنسيين لأخذهم، وعندما حاولوا قتلهم بدأ الماء يخرج من مسدساتهم، فأخذت المرابطة تلك المسدسات وعندما أمسكت على الزناد خرج الرصاص منها مما أدخل الدهشة والرهبة في نفوس العساكر فولوا هاربين. وفي رواية أخرى حاول العساكر تهديدها بالكلاب الشرسة والقنابل عندما علموا أنها تساعد (الفلاقة) المجاهدين فتحولت الكلاب إلى حيوانات وديعة وأبت القنابل أن تنفجر فأصيب العساكر بخيبة الأمل وعادوا من حيث قدموا يجرون أذيال الخيبة والفشل.

كما ان للولية تركية احساس غامض بنوايا الاشخاص اذ يروى انه قد جاءها شاب من الشرق الجزائري يوم الجمعة وهو اليوم الذي يكثر فيه الزوار وتقوم فيه (الوعدات) الزار. وعندما هم بتقبيل رأسها قالت له اذهب وقبل رأس والديك فهما أحق مني بأن تقبل رأسهما وبالفعل كان الشاب على خلاف مع والديه فشعر بالدهشة والرهبة. وعاد إلى بلدته وصالح والديه وجاء بهما ثانية إليها عرفانا منه بقدراتها الخارقة. وقد جاء شخص آخر يدعى "الحاج علي" معتقدا أنها مشعوذة أي (قزانة) أو (شوافة) فصدته بقوة عندما دخل عليها وقالت له: " أنا ماني شوافة ماني قزانة " فانبهر الرجل وقال لها سامحيني فهذا ما كنت أتساءل بشأنه في صدري.

وقد جاءت أيضا ثلاث سويسريات[*] يردن الدخول عندها والتعرف عليها فاشترطت عليهن أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويسمون باسم الله حتى تسمح لهم بذلك. وبالفعل نفذت السويسريات شرطها وتحدثن معها طويلا وبقين في زاويتها بضعة أيام كن خلالها يقمن بالأعمال التي تقوم بها النسوة الموجودات هناك ويصلين مع المرابطة ويتعلمون القرآن. وعندما سمعن بوفاتها بعثن لها بوسام شكر ومحبة لا زال أحفادها يحتفظون به.

على طول الرواق الموجود في بيتها تربط المرابطة المختلين الذين يحضروهم لها لتشفيهم بسلاسل من الحديد وتتركهم كذلك من ثلاث إلى سبعة أيام يشفون بعدها ويعودون سالمين إلى ذويهم، وكذلك الأمر بالنسبة للنساء اللائي لا تلدن فهن يقصدن المرابطة لنيل من بركتها فيحصلون على الأطفال. وللعانس، والمرضى الذين عجز الطب عن شفائهم دواء عندها والشرط الوحيد للشفاء هو النية الصالحة بأنها ستشفيهم لأن من يشكك ولو لحظة بقدراتها على الشفاء فإنه لن يشفى أبدا.

"وراس المرابطة " "وراس لآلة تركية " هكذا يلقي الكثير من المبهرين بالمرابطة يمينهم على بعضهم البعض فإذا حلف أحدهم برأس المرابطة فإنك لا تملك إلا تصديقه لأنه يستحيل أن يكذب وهو يحلف بها لأنه إن كذب فسوف يلحقه لا محالة غضبها وسخطها .

وقد روي لنا أنها كانت تبرز للمقربين منها أثار زرقاء تشبه أثار الضرب بالسوط على ظهرها كلما حلف شخص ما برأسها، وتقول لهم إنهم يحلفون بي انظروا، انظروا ... أي انظروا إلى الآثار التي تعلمني بذلك.

"المرابطة مولات نفحات ... في الصباح تكون في حال وفي لعشية تكون في حال ... " إن للمرابطة نفحاتها ومزاجها الخاص فقد تكون منشرحة الصدر، فرحة، ومطمئنة فتقابل أي زائر وتسامح أي مخطئ وتلعب مع أحفادها وتمزح معهم .

وقد تكون منزعجة ، ومضطربة فلا ترغب في رؤية أحد ولا التكلم مع أحد وأحيانا لا ترغب حتى في الطعام فتبقى في غرفتها (خلوتها) وحيدة حتى (تنفحلها) تأتيها الرغبة في الخروج .

وأهم ما يؤكد ذلك هو الأمكنة التي كانت تسمى بخلوة "لآلة تركية" فللمرأة خلوتها الخاصة. ولا يجب أن يبقى معها أحد إن هي رفضت ذلك وإلاّ فسيصيبه ما لا يحمد عقباه مثلما حدث للمرأة الحامل التي أرادت المبيت إلى جانبها فرفضت المرابطة وحذرتها وأكدت لها أنها ترغب في النوم وحيدة في غرفتها، ولما أصرت المرأة على رأيها ورقدت بجانبها باتت ليلة من الجحيم ترى طوال الليل في حبات من الجمر يتساقط على المرابطة ليتحول قبل وصوله إليها تمرا، وهكذا لم تنم المرأة طوال الليل وأجهضت في صباح اليوم التالي مما أشعرها بندم وخوف شديدين لأنها لم تسمع لكلام المرابطة، وأما التمر فقد أعطته المرابطة صباحا للزوار .

وذكر لنا أحفادها أن خلوتها قد تدوم أياما لكنهم اعتادوا عليها ولا يجرءون على إزعاجها مهما كان الأمر .

زارت المرابطة بيت الله الحرام سبعة مرات وقد آثرت الحج على البقاء عند وفاة ابنها "أحميدة "حيث ذهبت إلى الحج في اليوم الرابع لوفاته وقالت أن بيت الله أحق من البقاء والبكاء على ابنها، وأثناء تواجدها بالحج

أحست وهي تؤدي مناسك الحج بحفيدها وهو يسقط في البئر لحظة سقوطه فقالت لمرافقيها أن حفيدها قد سقط في البئر وقد مدت له يدها لتنقذه لكنها لا تدري إن كان ما يزال حيا، فحاول مرافقيها تهدئتها وإقناعها بأنها مجرد تخيلات، وعندما عادوا إلى الجزائر سألت الذين جاءوا لاستقبالها عن صحة حفيدها فأخبروها بأنه بخير. وأرادوا عدم إخبارها بالحادث الذي تعرض له فقالت لهم أنها أحست بالحادث وهي في مكة المكرمة ولا مجال للإنكار عندها صارحوها بالحقيقة وأكدوا لها أنه يتماثل للشفاء. وفي آخر حجة لها والتي كانت في أواخر الثمانينات ذكرت المرابطة لمقربيها أنها " نزعت السلاح ... خليت أمانتي في مكة وجبيت" قد نزعت عنها العزيمة .

بينما ذكرت لـ " سليمان جوادي " قائلة: " منذ أكثر من ثلاث سنوات رفعت إلى السماء من طرف جبريل عليه السلام، لقد مت وبعثت، لقد عاقبني ربي بأن نزع عني العزيمة وأنساني القرآن وجعل رجلي لا تقويان على الحراك "[3].

وقد أكد لنا مقربيها بأنها بعد عودتها من حجتها الأخيرة كانت لا تقوى على الحراك ، وقد زال عنها غضبها فقد كانت عندما تغضب من شخص ما تنزل عقابها به فورا لكنها بعد عودتها من الحج لآخر مرة أصبحت متسامحة جدا . كما أنها كانت تطلب من الطلاب المجيء إلى غرفتها وقراءة القرآن لها خاصة عندما تصلي .

ولم تكن المرابطة تذهب وحيدة إلى الحج بل تصطحب معها عددا كبيرا من الأشخاص الذين ليس لهم الإمكانيات اللازمة للحج وكل المصاريف كانت على حسابها.

مثله مثل ضريح أي ولي صالح جدرانه الداخلية ملطخة بالحناء في كل مكان ومصبوغ باللون الأخضر من الخارج .بني لها هذا الضريح قبل موتها من طرف خدمها ولم تدخله قط حتى دفنت فيه.

ويأخذ الزوار معهم العطر والحناء والشموع والبيض والكحل عند دخولهم إليه فيرشون قبرها بالعطر ويوقدون الشموع ويلصقون الحناء على الجدران ويجب المرور بالضريح أولا قبل الدخول إلى الزاوية وعند الخروج توضع بعض النقود عند الباب أو بجانب القبر.

"حنينة ما هي ملكهنة ما هي ملقزانه وكالة ربي ومحمد ... زوجت كثير من الناس، اليتامى، الأرامل، زوجت القلاليل ، وولدت النسا ..."

" هي تطلب ربي وربي يستجيب لها ... "

" عمرت بيوت ، وخلات بيوت ... "

إن القاصد للمرابطة يتساءل في أول الأمر عن الكيفية التي ستقابله بها ، والطريقة التي ستحل بها مشكلته إلا أنه يفهم كل شيء عندما يدخل حجرتها ويحكي لها همومه وأحزانه. فهي لا تستعمل أي شيء مما يستعمله المشعوذين أو المنجمين، إنها فقط ترفع يديها بالدعاء إلى الله لصاحب الحاجة بأن ييسر له أموره ويفرج كربه .

إذا فالمرابطة تعتبر كوسيط بين الله وعباده المحتاجين والمظلومين ولأنها والية صالحة فإن دعواتها لا ترد عند الله، ولهذا يقصدها الناس لتدعو لهم بالتوفيق وصلاح أحوالهم وفي نهاية لقائها بزوارها الذين يدخلون جماعات

في أغلب الأحيان تقول لهم عبارة : "راكم مسرحين " فينصرفون لأعمالهم ولأهلهم وهم فرحون لأنهم مباركون من قبلها. وأكثر المتعاملين مع المرابطة هن النساء ، فزاويتها تعد كملجئ للأرامل، والعوانس والوحيدات اللائي ليس لهن أسر تحميهن، فهناك أكثر من 30 امرأة ماكثة عندها وقد التقين ببعضهن عند زيارتنا لها .

وكن من مختلف الأعمار والمناطق ، فهذه حالة " ميمونة " التي قالت لنا: " أنا ميمونة عند لالة تركية نلقط فلكسرة " وهي امرأة تشرف على الستين عاما تزوجت عدة مرات وتطلقت في كل مرة لعدم قدرتها على الإنجاب، وكانت تتنقل بين الزوايا والأولياء الصالحين تدعوا لصلاح حالها لعلها تجد بيتا آمنا ورجلا تسكن إليه، وفي الأخير قررت البقاء في زاوية المرابطة تركية أملا في إيجاد مبتغاها هناك، وأملها ما زال حيا وباقيا وما دامت " القبة الخضراء " موجودة فإن طلبها سيتحقق مهما طال الزمان هكذا شرحت لنا حالتها(*). أما " عيشة " "عائشة " فكانت تتناول التبغ " الشمة " بطريقة ملفتة للانتباه فعلبة "الشمة "كادت أن تنهيها في دقائق قليلة من حوارنا معها .وهي كما تحكي عن نفسها جاءت إلى الزاوية منذ سنة و ستة أشهر تقريبا وذلك بعد أن فقدت زوجها وطفليها ،فقد ماتوا جميعهم فآثرت عيشة المجيء إلى المرابطة والبقاء عندها بقية حياتها على البقاء عند أحد الأقارب.

"بختة" هي امرأة في الخمسينات أيضا عرجاء من رجلها اليمنى لا تذكر المدة التي قضتها عند المرابطة لكنها لا تكف على ترديد :"إيه المرابطة ...وين راهي ذوك المرابطة...مانقدرش نهدر لكم عليها كانت حاجة... ". ولبختة أبناء و إخوة متزوجين ولهم حياتهم الخاصة لكنها لم تشأ المكوث عندهم بل هي جد مرتاحة عند المرابطة ولا تريد الرحيل أبدا حتى بعد موت المرابطة . وقد ذكروا لنا أنه قبل وفاة المرابطة كان عدد النساء كثير ولكن أغلبهن رحلوا بعد وفاتها .وكانت المرابطة تقوم بتزويج أغلبهن وذلك على نفقتها كما كانت تجمع أولاد الفقراء وتحضر لهم ختانا جماعيا مساعدة منها للمحتاجين.

فبركة المرابطة تركية مطلوبة من طرف الجميع حتى الطلبة والمعلمين والأساتذة كانوا يأتون لتدعوا لهم بصلاح أمورهم ، ونفس السلوك ينتهجه بعض السياسيين الذين تكثر زياراتهم لزاوية المرابطة في فترة الانتخابات حيث يقيمون الولائم (الوعدات) ويطلبون النصح والدعاء من المرابطة ويلقون خطاباتهم السياسية على الزوار الذين يتهافتون على المكان خاصة في نهاية الأسبوع.

وبعد وفاة المرابطة تركية أصبح يقام في زاويتها ملتقى سمي باسمها وهو " ملتقى المرابطة تركية " والذي يقام يومي 18 و 19 جوان من كل سنة ويحضره بعض الأئمة ورجال الدين والطلبة والجامعيين والأساتذة المختصين في الأمور الصوفية والأنثروبولوجية ...الخ. من مختلف جامعات الغرب الجزائري .

تعرض بعض الصور للمرابطة خلال هذا المعرض إضافة إلى صور لبعض الأعمال الخيرية التي كانت تقوم بها(*)ويشيد الحاضرين بآثار المرأة وتلقى بعض دروس الوعظ والإرشاد الديني ، وهذا كله طبعا " في جو ولائمي كبير يتناول فيه الحضور الكسكسى واللحم (وقد تتجاوز الذبائح في هذا الملتقى العشرة 10 كباش)

رغم كبر سنها فإن المرابطة تظهر في صورها أصغر بكثير من سنها، فهي في أغلب صورها تجلس مربعة رجليها، وقامتها منتصبة، جسدها مكتمل ومكتنز لون بشرتها أسمر يتخلل وجهها بعض الوشم، وعينيها يصعب تحديد لونهما بدقة لكن نظرتهما ثاقبة وحادة وتمسك بقوة على ركبتيها بيدين مخضبتين بالحناء التي لا تفارقه أبدا.وترتدي المرابطة في أغلب الأحيان ملابس بيضاء اللون، تضع دائما فوقها ما يعرف بـ "البخنوق" وهو قطعة قماش بيضاء تلبسها فوق ملابسها وتمسكه من الأمام بـ "شماسة" وهي قطعة من الذهب منقوشة على شكل "قرص الشمس" وتلك الشماسة كان قد تركها لها أحد الأولياء الصالحين عند خادمه "المقدم" وأوصاه بأن يعطيها للمرابطة حينما تحضر إلى هناك وقد قال له :" ستأتي عجاجة[*] غريبة ،يسموها تركية، "أعطيلها هذي الأمانة ...".

وبالفعل استلمتها المرابطة وعرفت من خلال "المقدم"[**] أن "بركة سيدي عيسى الدنداني ستنتهي عندها...". ومن بعض ما قيل فيها :

1. لالة تركية رانا جينا زيار.... مرض باش تداوينا وتشفينا من لضرار... الحمام راكي بنتيه اللي مريض راه يشافيه... بنتيه في أرض جدادك يخدموا فيه ولادك ...فالزاوية كي نلقاها ولادها قاع معاها... علي قاعد حذاها وبراكتك يا تركية عبد العزيز قاعد في الدار يعقب فالزيار... سوداني ملحرار رباتو تركية...
2. الله الله يامولانا يا شفيع المخلوقات... إقبلي زورة تركية هي مفتاح السادات... حوش الرومي وللا مرسى ... كي عاد يبايع ويسامح ... باع الحوش مع الشجرات ... جاها راجل وللاولية... وترتب عنه الفرض مع النسوان ... عاد يربط فلحنة ملمرافق للسيقان... ومقعادتوفي المخالفة... ملباستو حوالة مرتو...

هذا فضلا عن لجوء الناس قديما – ولا يزالون– إلى الشيخ أو الولي أو العارف بالله (حيا كان أو ميتا) أو " **سيدنا** " أو " **لالة**" أو " **السيدة**" أو " **مقام الشيخ**" "لاعتقادهم في كراماته واعترافا ببركاته التي تنساب من يديه وهو يتمتم بذكر الله والرسول، وقد يطلق البخور، فيشيع حوله جوا من الطمأنينة والهدوء، وفي تلك الأقوال والأفعال ردود فعل لا تنكر في حالة المريض المعنوية، وهذا لا ينكره الطب النفسي الحديث..."[4] فازدواجية الإنسان المتمثلة في النفس والبدن تجعل من الواحد يؤثر في الآخر ولهذا فقد يشفى المريض بمجرد اعتقاده في كرامات شيخه أو وليه...الخ .

والجدير بالذكر أنه ليس هناك شرط عقلاني أو مواصفات خاصة يجب توفرها في صاحب الكرامة، فقد يكون رجلا عاديا متدينا أو غير ذلك، امرأة أمية أو متعلمة...الخ وإنما المهم هو الثقة المتبادلة بين الولي والمؤمنون به " فالثقة والاعتقاد القائم بين المريض وطبيبه، وبين المريض ووليه – أيا كانت هويته – من الأسباب الدافعة للشفاء من بعض الاضطرابات النفسية التي قد تنعكس على أمراض وظيفية أو غير عضوية مثل الصداع أو بعض الأمراض كالشلل المؤقت...الخ"[5]. ما يجب فهمه أكثر هنا هو مفهوم الكرامة في ذهن جمهور المؤمنين[*] وما يمكن أن تكون عليه هذه الكرامات ؟...

فقد رأينا أن المرابطة " تركية "كان لها العديد من الكرامات والخوارق التي قد لا يتقبلها العقل البشري في الكثير من الأحيان كقصة الرجل الذي أصبح امرأة؟... وظهور الطعام من غير سبب ظاهر..." فالكرامة للولي رتبة ثانوية للمعجزة بالنسبة للنبي، وتأتي في الترتيب بعدها مباشرة، فمعجزة النبي مقرونة دائما بالتحدي واستمرار الإيمان والتصديق من قلب مشاهدها عن طريق المعجزة بخرق العادة كإسراء محمد "ص" وانفلاق البحر لموسى وإحياء الموتى لعيسى وغير ذلك ومعجزة محمد" ص" الكبرى في أنه أمي وأنه أنزل عليه القرآن..."[6] .

وهذا حسب ما جاء في كتاب جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف لمحمد أبو الفيض المتوفي الحسيني، والملاحظ أن معظم الأفكار الدينية في بقاع العالم المختلفة كما هو معلوم ترسخ في أذهان الجماهير الفكرة القائلة بأن أمرا خارقا للعادة، غير مألوف للناس غير متفق مع ما هو سائد من علاقات طبيعية قد يظهر على أيدي بعض الرجال الذين تربطهم بالله علاقة خاصة، فالأنبياء تقع على أيديهم المعجزات وكذا القديس أو الأولياء .

فظاهرة الكرامات تؤدي بنا إلى التأكيد على عدم إمكانية فصل موضوع الدين عن موضوع السوسيولوجيا، فالدين يعتبر نمطا للبناء الاجتماعي للواقع ومرجعا يلجأ إليه الفاعلون الاجتماعيون بكيفية تلقائية للتفكر في العالم الذي يعيشون فيه، و لقد أصبح الدين موضوعا للبحث العلمي والتاريخي وتخضع الظاهرة الدينية مثلها مثل باقي الظواهر الاجتماعية الأخرى للمبادئ التي تتحدد بها معرفة الاجتماعي .

وفي هذا تأكيد على الطرح الذي جاء به " إميل دوركايم " في كتابه "قواعد المنهج السوسيولوجي " القائم على فكرة " أن الحياة الاجتماعية يجب أن تفسر بالأسباب العميقة التي لا يتم الوعي بها وليس بتصور المشاركين فيها"[7].

إن هذه العلاقة بين السوسيولوجيا والدين تدفعنا لمواصلة المحاولة نحو تفسير الاجتماعي بالاجتماعي لهذا نتساءل حول العوامل الداخلية للحقل الديني و للحقل الاجتماعي التي تتفاعل داخلها كرامات الولي وأسباب التصديق بها وطلبها باستمرار من قبل المؤمنين به ؟... لقد بلغ بعض النقاد أحيانا إلى وصف الظاهرة برمتها على أنها شعيرة غير عقلانية تدعمها المعتقدات على العكس من العلم الحقيقي الذي يعتمد على الأدلة والبراهين "[8].

غير أن "عملية النقد ونقد النقد هذه التي تسمح بضمان شرعية معرفة الاجتماعي بالاجتماعي حسب طرائق مبادئ ومناهج المعرفة العلمية التي تحدد العمل السوسيولوجي . أن نقد التجارب والتعبيرات العفوية والساذجة عن العالم الاجتماعي لا ينفصل عن تعرية التصورات الميتافيزيقية للعالم وخصوصا تلك التي تقبل وتطلب تدخل قوى متعالية عن الإنسان في التاريخ"[9]، ولهذا تختلف تعريفات الدين من اعتباره كنظام للمعتقدات والممارسات السلوكية والأخلاقية، أو كنظام للأفكار والتوجهات، أو كمجموعة من الطقوس والشعائر إلى محاولة دراسته كمؤسسة اجتماعية ثقافية أو كمجموعة من التشريعات والسنن وهو عموما نسق من الرموز يرسخ لدى الإنسان حالات وجدانية، ودوافع قوية، وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود[10]، والجدير بالذكر أن موضوع الدين تناوله العديد من السوسيولوجيين الكبار، وإن لم يكن "دوركايم"في مؤلفه"الأشكال الأولية للحياة الدينية " .أول من حلل الظاهرة الدينية وحاول إثبات وظيفتها في تقوية صلات الفرد بمجتمعه فإن آخرين حاولوا ذلك

سواء قبل "دوركايم" أو بعده ويمكن أن ندرج في هذا الباب عدة أسماء كمونتسكيو وكونت، سبنسرو فيبر ومار سيل موس...الخ. وقد ساهم كل واحد منهم في تفسير الظاهرة الدينية حيث شكلت هذه المسألة نقطة محورية في فكرهم.

ولما كانت الكرامات من بين السلوكات المرئية التي اكتسبت طابعا دينيا سواء من حيث التفسير أو من حيث علل الحدوث وكان المتصوفة هم أكثر الناس ترويجا لهذه المسألة بحيث لم يتركوا شيئا خارقا للعادة مبطلا لقوانين الطبيعة .يمكن أن يتصوره خيالهم إلا نسبوه إلى أحد أوليائهم ويعرف الصوفية بأنهم"رجال فارقوا عالم الناس وحجوا إلى الله الذي دعاهم فلبوا الدعوة وأجابوا النداء، الصوفية ليسوا كالبشر، وهم صنف راق من البشر، فما ينطبق عليهم لا ينطبق على كل الناس"[11].

وقد ورد في رسالة القشيري أن الكرامات : قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام في غير أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمن عطش أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة ،أو تخليصا من عدو أو سماع خطاب من هاتف أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقصة للعادة...

وفي الوقت الذي حارب فيه بعض علماء المسلمين، وخاصة الفقهاء مقولات الصوفية وما يدور منها حول الكرامات كما فعل الإمام بن الجوزي في كتابه " تبليس إبليس" حيث نسب هذه الظواهر إلى الشيطان إلا أن الجماهير بحكم واقعها الحياتي ومستوى تقدمها العلمي كانت وما تزال ميالة إلى تصديق الكثير من القصص وواضح أن نسبة خوارق الأحداث إلى أئمة الصوفية يلهب خيال الجماهير، ويزيد من تعلقها بهؤلاء الأئمة وأتباعهم ويعزز في نفس الوقت المكانة المادية والمعنوية للمتصوفة في نفوس الجماهير سواء رغبة في أن يصيبهم شيء من الكرامات الخيرة لهؤلاء الأولياء أو خوفا من انتقامهم الذي يوحون بقصصهم أنه قد يكون مدمرا ، فقد ورد في الحديث القدسي " من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب ..."، وقد أخذ الناس يتقربون إليهم ويطلبون منهم البركة، ويسألونهم التوسط لهم لقضاء الحاجات ويعتبرون دخول أحدهم لبيوتهم تشريفا لهم وتبركا، ويتفاءلون بطلعته ويتغاضون عن كثير من أعماله ويحاولون تفسيرها بشكل يتناسب مع قدسية السر الإلهي المودع فيه. [12]

وهناك طبعا جانب اجتماعي وسياسي للحركة الصوفية " وقد تطورت العلاقة بين الصوفية والطبقات الكادحة بين القرن الحادي عشر الميلادي باتجاه ربط الصوفية بالطبقات الخطرة أو المعارضة... ثم تطورت فيما بعد بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر نحو الارتباط بالمرابطين أو الأولياء الصالحين المحليين ، وبالسكان القرويين والجبيلين الذين أصبحوا خارج نطاق السلطة المركزية في المغرب الكبير في نهاية دولة بني مرين.

وعندئذ أصبحت الصوفية حركة إخوانية متنوعة جد . وشهدت المنافسات بين القبائل والعشائر التي راحت تعبر عن نفسها بطقوس واحتفالات مختلفة تميز كل إخوانية أو طريقة عن بقية الطرق الأخرى "[13] ويرتبط المرابطون غالبا بزاوية صوفية مرتبطة بشيخ مؤسس، ولا شك في أن البركة تفعل المعجزات لكسب ثقة الناس وهذا الإسلام المرابطي تهيمن عليه تقديس الأولياء الصالحين لدرجة توحي بعبادتهم.

وتطرح هذه النقطة عدة إشكاليات متعلقة بحكاية الولي ، وصف ضريحه ، والمسجد الموجود بجواره ، مناسبات زيارته في غير أوقات المولد ومظاهر الاحتفال به ، المناسبات والأغراض التي يستنجد فيها بالولي، أنواع النذور التي تقدم على ضريحه أو لمسه إن كان حيا أو ميتا، الانتشار المكاني لعبادة الولي ومظاهر التكريم التي يتلقاها من أهل هذه المناطق ، الارتباط الموجود بين هذا الشيخ وإحدى الطرق الصوفية ودور هذه الأخيرة في رعاية هذه المولى، والإشراف على عبادته وعلى مولده ، الألقاب والصفات التي تطلق على الولي[14]

وإن كنا قد تطرقنا في وصفنا لظاهرة المرابطة "تركية" لمعظم هذه النقاط فإن الرجوع إلى محاولة فهم هذا الفعل الاجتماعي المتميز بالخارقية ضروري خاصة وأن مفكرا كبيرا وعالما اجتماعيا مميزا وهو **ابن خلدون** قد ساهم في تفسير هذه الظاهرة وتحليلها –أي ظاهرة الصوفية وظاهرة الكرامات – إذ خصص لها جزءا من مقدمته وكان قد ذكر في فصل حول **"حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين، وحقيقة الكهانة ثم الرؤيا ثم العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب"**.

أنه وجب أن يكون النفس استعدادا للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الأوقات في لمحة من اللمحات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل ...ويكون لها اتصال بالأفق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة ...فلها في الاتصال جهتا العلو والأسفل ...فتحرك النفس بها دائما بما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية .ويخرج إلى الفعل في تعقلها متشبهة بالملأ الأعلى الروحاني وتصير في أول مراتب الروحانيات في إدراكها بغير الآلات الجسمانية .فهي متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية في الأفق الأعلى من غير اكتساب بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى في ذلك .

والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول فينقطع بالحرفة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن ،وكلها خيالي منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئه ينتهي إلى الأوليات ولا يتجاوزها. وإن فسد فسد ما بعدها وهذا هو في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم. وصنف موجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعدادات ... وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم الدينية والمعارف الربانية ... وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملاكا بالفعل ،ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الإلهي في تلك اللمحة وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم... ثم إننا نجد في النوع الإنساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم و لا من غيرها إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطاس الماء[15].

إن هذه الأفكار العملاقة التي لمح إليها ابن خلدون توحي لنا بعالمية الظاهرة فمفهومه للإنسان وتصنيفه للنفس البشرية يؤكدان على أن الظاهرة التي نحن بصدد دراستها رغم خصوصياتها إلا أنها تتشابه مع نماذج أخرى عبر العالم ، فالتجربة الصوفية موجودة عبر العالم وفي كل الأديان وليست حكرا على الإسلام وحده والاعتقاد بالظواهر الغير مألوفة والخارقة يزداد انتشارا حتى في وقتنا الحالي .

و يمكن أن نورد مثالا عن رجل فلبيني يعالج بالمعجزات "فقد شاهد الفرنسيون على التلفاز أصابع رجل فلبيني وهي تخترق بطن مواطن فرنسي يدعى "هنري ليون توباكيس" ويخرج من كليته رمالا وذهل المشاهدون عندما لم يشاهدوا أي أثر لجرح العملية،ولقد حمل المريض صور العملية بنفسه ،وطاف بها على دور الصحف والتلفزيون وروى قصته فقال أنه من أهالي مرسيليا...(ثم مرض بكليتيه)ولم يستطع الأطباء اليابانيون علاجه فذهب إلى الفليبين وقصد عيادة أحد الذين يعالجون بالمعجزات ...وهنا –كما يقول – رأيت فتاة ممددة على سرير العمليات، ومد الطبيب يده إلى بطنها فانشقت بمجرد لمس أصابعه لها وأخرج منها ضفدعة حية ورأيت بعيني الضفدعة وهي تتصارع داخل الكيس، الذي وضعت فيه توطئة لحرقها، وفكرت في الهرب فأنا لا أصدق ما تراه عيني ، وتمددت بدوري بعد أن خلعت قميصي، وأحسست بأصابع الطبيب تتسرب تحت الجلد،و تجول بين كليتي، وشعرت بسائل يتدفق على بطني من الخارج، وكان هو الدم الذي سال مني ولكنني لم أشعر بأي ألم ...وبعد ثلاث دقائق أقفل الجراح الجرح ، ومسحه بقطعة من القطن، ووضع عليه عصابة، وقال لي الطبيب اذهب الآن واسترح واشكر الله...وبعد أيام رفعت العصابة، فلم أرى أي أثر للجرح وشعرت براحة بعد أن انتزعت الرمال من كليتي".

انتهت هذه المعلومات المثيرة التي نقلها لنا الكاتب حرفيا[*]من إحدى المجلات الأسبوعية العربية الواسعة الانتشار، واستمرت بنشر هذه القصص على الرأي العام عدة أسابيع، وهي قصص مدعمة بأدلة كثيرة يرويها ألوف الأمريكيين والآسيويين والأوروبيين الذين يجدون بديل علاجهم عند ذلك الشخص الخارق ...ولكن هل يمرض الناس بالضفادع حقا؟ وفي أي مجال من مجالات الطب يمرض الناس بالضفادع ؟وكيف تعيش الضفادع التي يخرجونها حية في أجسامهم ،وما هي أعراض تلك الأمراض الضفدعية التي تنشأ في أجسام الناس ؟[16]. بعد هذه الأسئلة نضع علامة تعجب وعدة استفهامات!؟؟...

لكن هذا المثال ما هو إلا عينة صغيرة لآلاف القصص التي تروى عن خارقية بعض الناس بمختلف توجهاتهم العقائدية "وصعوبة فهم هذه السلوكات لا تأتي فقط من تعقد الظاهرة بل أيضا من تعريف المعنيين بها"[17]. فالدلالات التي تحملها هذه السلوكات وهذه الاعتقادات سواء الاجتماعية منها أو الثقافية أو رمزية للمجتمع الذي يحتويها هي التي تجعلنا نفهم هذا النوع من الإيمان في الخوارق ولهذا يبدو واضحا في نظر الملاحظ أن السلوكات ليست محكومة بالعوامل الخارجية فقط بل أيضا بالعوامل الداخلية ، والتمثلات التي تنتجها[18].

ويدخل في نطاق العلاج أيضا بعض الأعضاء الجسمية للولي كيديه أو لسانه أو حتى أنفاسه التي تنبعث من خلال ترديده لكلمات غامضة لها سحر بالغ في علاج الأمراض.ومن ذلك قراءة بعض الكلمات على الماء[*] أو

الطعام "فبرش الماء بعد التلاوة المقدسة يجعله مباركا فتموت الحشرات عليها أو تحفظ وتزهر أسرع، تعود هذه النظرة للماء المبارك التي نجدها في التقاليد المسيحية أيضا إلى جذور سامية أو كنعانية قديمة ،حيث كان كما تؤوله قوى الخصب والإنتاج لكونها أساس الحياة للشعب الزراعي " [19].

وفي حالة المرابطة كانت هي بنفسها تردد "كي تجي عندي بنيتك تشرب الماء تبرا..." فإذا آمن القاصد إليها بكراماتها وقوتها فإنه سيبرأ من ما يعاني من آلام بمجرد شربه للماء في زاوية المرابطة .

وقد عرضنا مثالا يبرز تأثير الماء في الشفاء وهو المتعلق بالفتاة المكفوفة التي رقاها حفيد المرابطة ورأت في الحلم أن المرابطة تغسل عينيها فأصبحت في الغد ترى الحياة والنور بعد وقت طويل من العيش في الظلام .وهكذا "يصبح الماء كما رأينا أكثر من موضع مقدسا بقراءة تتلى عليه ثم ينفخ عليه وبالتالي فإن رشه يحدث سحر يقلب الشخص من حالة إلى حالة"[20].

نحن أمام واقع فريد من نوعه، والحدث هنا، هو علاقة قوة متحكمة ونفاذه وولاء مستمر تستعمل الأولى كل الأساليب لتأكيد تميزها و يوفر الثاني لنفسه كل الخيالات التي تبرر إيمانه وتعلله و لا يتوقف الأمر على الطعام والماء بل يتعداه إلى الأحلام أيضا...

كانت الأحلام على مدى العصور –ومازالت– كوعاء يسقط فيه الأفراد مخاوفهم وآمالهم، ورغباتهم وعلاقاتهم مع الآخرين ومع العالم الخارجي... وشيء كالذي حدث مع نبوءة يعقوب عليه السلام "لحلم ابنه يوسف" يحدث مع "المرابطة تركية" إن أحلامها تحمل معها إشارات أو تحذيرات من أحداث حدثت فعلا على مسافات بعيدة أو هي على وشك أن تحدث في المستقبل.

والمعروف أن أحلام التنبؤ هذه كانت معروفة منذ القدم فشهيرات الكاهنات اللائي رويت تنبؤاتهن "وتفسيرهن للرؤى هن "طريقة " وهي التي أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه، وأخبرته بخراب سد مأرب، وإتيان سيل عارم وإفساده الجنتين، فخرج من اليمن وخرج بخروجه بشر كثير فتفرقوا أيدي سبأ، على قول المثل العربي، وانبثق السد وخرب عمران اليمن وزبراء القضاعية وهي التي أنذرت قومها بني وئام ، وهم في يوم عرس ،بغارة بني ناعب وبني داهن عليهم، فكذبوها وشتموها فوقعوا في البلية التي أنذرتهم بها وقتلوا جميعا.وعفيراء الحميرية التي فسرت رؤيا مرشد بن عبد كلال"[21].ولهذا فقد اهتم الكثير من العلماء بالأحلام أمثال كارل يونغ،كالفن هول، فريديريك بيلز، فرويد...الخ.

ويذهب **كالفن هول**(*) إلى تعريف الحلم بأنه "تواتر من الصور العقلية ،وهي في غالبيتها صور بصرية من حيث نوعيتها ،تمر بالفرد كخبرات خلال النوم ،وللحلم عادة مشهد أو مشهدان ، ويشتمل على عدة أشخاص بالإضافة إلى الشخص الحالم ،ويتضمن سلسلة من الأنشطة والأعمال والتفاعلات وهذه كلها ينتظم الحالم في أحداثها. فهو (الحلم) يشبه صورا متحركة أو عرضا دراميا يكون دور الحالم فيه مزدوجا إذ هو المشارك والمشاهد معا"[22].

وهذا التعريف مهم بلا شك، ذلك أن المشارك في الحلم والمشاهد له إذا كان "واليا" كالمرابطة فسيضفي ذلك على حلمه طابعا خاصا فلا شك أن هناك فروق فردية في الأحلام، فالأفراد "يتفاوتون كثيرا في عاداتهم

الإحتلامية"[23] ولهذا فالحلم هو الآخر يكتسب صفة دينية بحسب مصدره وهكذا أخذت الأحلام دورها في الحياة اليومية وأصبح التفسير هو هدف الجميع ويتطرق" **فرويد** " لهذه النقطة في كتابة "**الطوطم و التابو**"حين يذكر أننا "... نحلم في الليل، وتعلمنا أن نفسر الحلم في النهار، وقد يظهر الحلم مع الحفاظ على طبيعته مشوشا وبلا ترابط، وبالعكس قد يحاكي في نسقه الانطباعات عن شيء معاش،وأن يستخلص واقعة من أخرى، وأن يلبس جزءا من محتواه جزءا آخر يبدو أن هذا يتيسر له بشكل كامل، أن لا تظهر للعيان في مكان ما لا معقوليته ،أن لا يظهر فتق في نسيجه، وإذا أخضعنا الحلم للتفسير ،علمنا أن عدم الثبات وعدم الانتظام في ترتيب مكونات الحلم ليس معيقا البتة لفهم الحلم"[24].

فالتفسير يأخذ أبعادا عديدة يمتزج فيها الخيال بالواقع بشكل غير عقلاني فمجرد رؤية المرأة الحامل "المرابطة " في منامها فإنها لن تتردد في تسمية مولودها باسمها "تركية" وإن كان المولود ذكرا فلا بأس من تسميته"تركي"والنصيحة من المرابطة في منام أي شخص هي كالأمر الواجب أتباعه وإلاّ حصل مكروه له، أو لأحد المقربين إليه. "وكأي من المعتقدات الخرافية نجد أن التطير والتشاؤم يؤثر على ميكانيكية التفكير فيكبتها أو يعطلها ويدفع بالإنسان إلى اتخاذ مواقف لا تستند إلى تعليل عقلاني، سواء بالإقدام على العمل بالاستناد إلى الفأل الحسن أو الإحجام بتأثير نذير الشؤم. وتجعل المزاج هو المحرك المتحكم بدل أن يكون العقل"[25].

إن رؤية المرابطة في الحلم في صورة باعثة على الحزن أو المستبشرة تؤثر نفسيا على الأفراد فهم في انتظارهم الدائم للمعجزات التي قد تصدر عن "وليتهم "بين الحين والآخر ويهرعون إلى تفسير أحلامهم بطريقة قد تكون خرافية لكنها مقنعة ومريحة بالنسبة لهم. و يشبر الفيلسوف **ابن سينا** للأحلام إذ يعطى جملة من القواعد والشروط لحدوث الحلم ذو المنشأ الإلهي. فهذا الحلم حسبه لا يحصل بالضرورة لكل نفس ناطقة أرضية. فالرؤيا الصادقة عبارة عن رسالة سماوية، أو شكل من أشكال الوحي الإلهي، بهذه الحالة تتطلب هذه الرؤية الصادقة، نفسا ناطقة فاضلة عاملة ، إضافة لتوفر ظروف وشروط ضرورية ملحة لإرسال هذه الرسالة الإلهية بوقت محدد، ولنفس محددة .

ويربط الفيلسوف **ابن سينا** بين صدق الرؤيا ،ونوع المحاكاة التي تقوم بها القوة غير المتخيلة، أي لا حلم بدون فعل محاكاة فالرؤيا تكون صادقة في حالة محاكاة الأشياء ، بطرق متعددة، تارة عندما تكون محاكاة الأشياء قريبة جدا، وتارة عندما تكون المحاكاة بعيدة . وبهذه الحالة الأخيرة ،نكون بحاجة إلى مفسر يفسر لنا ما حلمنا به... فلا حلم بدون خيال ،ولا رؤيا صادقة بدون متخيلة فاضلة عالمة متعاونة مع عقلها العلمي باتصاله واستقباله للمعقولات عن طريق العقل الفعال[26] وعلى الرغم من ميتا فيزيقية هذه الآراء في تفسير الأحلام عند ابن سينا، إلا أنها تتفق مع المضمون العلمي مع اللغة الحديثة في تفسير الأحلام، فعلماء النفس يفسرون الأحلام بأنها انعكاس لما تحت الشعور فيمكن عندئذ استبدال كلمة "**تأويل**" بكلمة "**تحليل نفسي**" أو بكلمة"**خيال**" أو كلمة "**ما تحت الشعور**".

أما علماء الاجتماع فينظرون إلى الأحلام بعلاقتها مع المحيط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي الذي يعيش فيه الحالم ومن خلال المخيال الاجتماعي الذي تشكل عنها أو الذي شكلها .

إن الكرامات التي تملكها المرابطة تجعل من أحلامها هي الأخرى كرامات .فقد حدث أن شاهدت في المنام وفاة ابنها وأخبرت المحيطين بها عن رؤياها كما بعثت عبر أحلامها رسالة إلى الرجل الأسود الذي جاءها من الصحراء ليعينها في تحضير الدواء، الذي كانت تمده لقاصديها ...الخ.

فالقدرة التي تملكها هذه المرأة تشبه ما وصفه ابن خلدون بـ"الخاصية التي هي الإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لدى بعض البشر من أهل الكشف من الصوفية فتلفت حينئذ الذوات التي فوقها من الملأ لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود"[27].

ويستعمل "يونغ " مفهوم الشخصية "المانا"[*] للتعبير عن"تلك المرأة التي يجب أن تطاع وهي المرأة التي تملك قدرة خفية كامنة، المانا بالتحديد والتي تجسدت عبر التاريخ في صورة البطل وفي الرجل الإله الذي يعتبر الكاهن ممثله في الأرض"[28]. وتقديس أحلام المرابطة صورة أخرى من صور الولاء هذا التقديس الذي لا ينحصر في فئة الأميين والفقراء بل يتعداه حتى إلى المثقفين والمتعلمين ،إذ لا يزال الكثير منهم عاجز عن اتخاذ موقف حاسم مما يرويه الناس عن كرامات الأولياء.

كما أن التعامل مع الموتى يترجم لنا بعضا من عناصر المخيال الاجتماعي لجماعة المؤمنين الذين يقيمون طقوسا كثيرة عند ضريح الولي فزيارة الأضرحة (المقامات والمزارات) ظاهرة قديمة لدرجة أن الأموات من "الأولياء " و" الصالحين" يتمتعون بالتقديس و الاحترام أكثر مما يناله الأحياء منهم .لذا لا يتردد المؤمنون بهم في زيارة مقاماتهم وقبورهم لتلمس البركة والتوسل إلى الله أمام ضريح الولي.ولا يكتفي الزوار بالدعاء لأنفسهم بل كثيرا ما يفعلون ذلك نيابة عن أهلهم وأصدقائهم طلبا للبركة والرضى، وما ينطبق على ضريح المرابطة "تركية" ينطبق على مقام السيدة "زينب" والسيدة"نفيسة"بمصر ومقام "الحسين" و"الشافعي".....إلخ.

وتعد هذه الأضرحة كمركز جذب للسكان ، باعتبارها في نظرهم منطقة آمنة، فأولياء الله لا خوف عليهم ولن يصيب من يسكن بجوارهم أي سوء[29] وتقع هذه الأضرحة والقبور غالبا في المرتفعات وهكذا فإن "الجبال كانت تقدس لكونها قريبة من السماء، وبالتالي لأنها تسهل الاتصال بالله ...ويقطن النبي...جبلا كي يشرف وينبيء ويكتسب قداسه"[30].

ولزيارة الضريح أدعيته الخاصة وأناشيده التي تعبر عما يخطر في بال الزائر(ة) " الله الله يا مولانا يا شفيع المخلوقات ... أقبلي زوره تركية هي مفتاح السادات...حوش الرومي وللا مرسى ...إلخ".

وأخرى تقول لها "يا لالة يا تركية وأنا سمعت البندير ... لا صحة لاذرية وتعاونني بالخير ...".

فالتعبير عما يجيش في خاطر الزائر(ة) الطالب(ة) لمساعدة المرابطة تنغم كلماته حسب إيقاع الطبول التي تدق ،إضافة إلى بعض الحركات الجسمية المختلفة غالبا ما تختلط بألفاظ دينية تعطي هذا الطابع الشعبي

التقليدي طابعا دينيا ،كاستعمال لفظ "الصلاة على النبي " وترديد أسماء الله وغيرها من الألفاظ التي تستعمل في هذه الأناشيد .

هذا فضلا عن أن هذا المزيج من الطبول والأناشيد والأدعية والشطحات ترتبط بما يعرف " بالجن " والشياطين " والأرواح الشريرة " والعفاريت " ويعتقد أن بممارستها يتخلص المريض من مرضه ويخرج الجن من الجسد الذي يسكن فيه.

" المرابط هو اللي يحشم من خيالو... هذاك هو المرابط ..."

إن تقديس المرابطة تركية لا يعود فقط للأسباب السابق ذكرها بل أيضا إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية والقرابية لسكان المنطقة فبوصفها مرابطة بفعل "القدرة التي منحها الله لها(*) أو التي ورثتها عن أسلافها "[31] فإنها تنتمي إلى الأشراف الذين تعد القوة هي أساس وجودهم والتفوق هو طموحهم ومبدأهم الأسمى هذه القوة التي تتضمن قيم التسلط والانصياع والخضوع إضافة إلى الافتخار بالأصل الاجتماعي الذي ينتمي إليه، فالافتخار أحد الحوافز الكبرى لا براز القوة والتفوق لذا تهتم المرابطة كثيرا بحفظ نسبها فتحرص على تزويج أبنائها من "المرابطين " و"الأشراف" فقط ، حتى لا تختلط الأنساب.

وهؤلاء الأشراف يبقون كذلك عبر تسلسل النسب حاملين لأسماء أجدادهم حتى وإن لم تتميز حياتهم بأعمال معينة أثناء حياتهم فهذا لا ينفي تميزهم وشرفهم.

وليست المرابطة مشعوذة أو ساحرة " ما هي ملكنهة وما هي ملقزانة... وكيلة ربي ومحمد ... هي تطلب ربي وربي يستجيب لها ..." ويحضرنا هنا السؤال الذي طرحه " فرويد" في كتابه " الطوطم والطابو " :"هل يمكن للمرء أن يفرق بين السحر والشعوذة كمفاهيم؟ يمكن إذا أراد المرء مع بعض التعسف أن يتجاوز تقلبات استخدام اللغة ، عندئذ تكون الشعوذة في جوهرها فن التأثير على الأرواح، من خلال معاملتها كالبشر في نفس الظروف، أي عن طريق تهدئتها، استرضائها، استمالتها، تخويفها، سلبها قوتها إخضاعها لإرادة المرء أي بنفس الوسائل التي وجدها المرء فعالة مع البشر الأحياء، أما السحر فهو شيء آخر ، إذ لا يلتفت في الأساس إلى الأرواح"[32] وإيمان الناس بوجود كائنات ما فوق الطبيعة "كالجن مثلا " جعلهم يستخدمون عدة وسائل كالسحر للتعامل مع الأخطار الحقيقية في الحياة ، وهذه الوسائل الخاصة هي في حد ذاتها سحرية وهذه المعتقدات الغيبية ظلت تصاحب الإنسان طوال مراحل حياته التاريخية " وتشير الشواهد الحفرية أن الإنسان كان دائما يعتقد بوجود حياة بعد الموت والدليل على ذلك النقوش والرسومات التي عثر عليها المؤرخون على جدران المعابد والرمزيات المادية والمخلفات الحفرية، كل هذه الرموز تدل على أن الإنسان طوال مراحل التاريخ كانت له معتقدات غيبية "[33] ولذلك يهتم الأنثروبولوجيون بدراسة نظم المعتقدات عند ثقافات الشعوب البسيطة والتقليدية، ويختلف السحر عن الدين في أن الأول هو وسيلة لتقديم توسلات للقوة العليا بينما الثاني هو وسيلة للتقرب إلى تلك القوى، و"المرابطة تركية " حسب ما روي لنا لم تكن تقوم باستحضار " الجن " أو تستعين بقوى خارقة ولكنها كانت تدعوا الله فيستجيب لها .

وهذا النموذج يشبه إلى حد كبير نماذج غربية وعربية وحتى جزائرية(*)ومن ذلك نجد الفرنسية " جان دارك (Jeanne d'arc) التي شغلت بأفعالها وصفاتها، أذهان المؤرخين، منذ وفاتها ، لتشغل أذهان الفرنسيين بصفة عامة فانقسموا في تصويرها من معجب متحمس إلى حد الانبهار، وإلى مستهجن إلى حد الاستنكار فتكونت بذلك أسطورة جان دارك.

كانت أسطورة "جان دارك" موجودة قبل وجود شخصية جان نفسها، ففي بداية القرن الخامس عشر ، تبلور في فرنسا التي كانت تمر بأسود فترات تاريخها ، أمل في ظهور المنقذ العجيب. في الجهات الأكثر بؤسا وكانت نبوءة قديمة قد تنبأت بأن امرأة ستضيع فرنسا ، وأن عذراء "مار شن اللورين " (Marches de la lorraine) ستقيلها من عثرتها وعندما شوهدت "جان" تزحف على" أورليان" (Orléans) تذكر الناس النبوءة ونسبوها إلى "ميرلان" العجيب (Merlin l'enchanteur) واستقبلها الشعب بحفاوة، واقتصر الشك فيها –إن كان هناك ثمة شك –على فئة من العظماء.

ولقد كانت المغامرة في حد ذاتها خارقة فقد عزمت شابة فلاحة على جمع شمل فرنسا المشتت، وعلى إعادة الشرعية التي كان الإنجليز –الذين احتلوا جزءا من الوطن–ينازعون الملك شارل السابع عليها ،وهذا رغم أنها تبلغ من العمر السابعة عشر فقط ولدت سنة 1412 في "دومريمي"(Domremy) جنب منطقتي "اللورين" (Lorraine) و"الباروا"(Barrois) من أبوين فلاحين مستوري الحال، وكانت أمية .وكان يعدها المحيطين بها عادية إلا أن تأويلات "جان دارك" تنوعت عبر مرور الزمن، فقد صنع كل من تطور الذهنيات، واكتشاف المؤرخين، وإبداعات رجال الأدب ،العشرات من "جان دارك" اللواتي ينتمين إلى تاريخ الأفكار أكثر من انتمائهن لسيرة العذراء الأصلية.

وتطورت سيرة "جان" في البداية بعيدا عن المعرفة المستمدة من النصوص وكان الناس يتذكرون أعمالها الباهرة، ويتعجبون كيف استطاعت امرأة أن تقوم بها، وقد كانت في البداية موضوع عبارات محلية، حيث قامت مدينة "بورج" و"أورليان" حتى بتنظيم حفل ديني بمناسبة وفاتها واستمر هذا التقليد في مدينة "أورليان" حتى يومنا هذا كما استمر الناس في بلدة "دومريمي" التي بقي فيها أخوها "جاك" يحافظون على ذكراها حفاظا دينيا أمام الكنيسة.

"أما بالنسبة للشعراء فقد ظلت"جان" شخصية حية جدا ،إذ خصتها قبل وفاتها الشاعرة "كريستين دوبيزان "(Christine de pisan)المتوفاة سنة 1431م بأبياتها الأخيرة لأنها تمثل في نظرها أرقى الفضائل الأنثوية:

صبية ذات السادسة عشر من العمر

Une fillette de seize ans

لم تثقلها الأسلحة

A qui armes ne sont pesans

أليس ذلك أمرا عجيبا؟

N'est –ce pas chose fors nature ?

إذ أمامها سيفر أعدائها[.....]

Et devant elle vont fyans ses ennemis

(34) " (*Ditié de jeanne d'arc.1429*)

(Edmond Richer) الذي ألح على أهمية تلك الوثائق وجمعها في أربعة كتب ضخمة حول تاريخ العذراء (1625م-1630).

ولقد بدأت عبادة "جان" تزدهر منذ 1850...وفي سنة 1869 طلب "دوبالنوب" (Dupanloup)أسقف مدينة "أوريان"، من روما إقامة قضية تقديس لجان دارك.

وفي سنة 1884 دعا الجمهوري"جو زيف فابر" (joseph Fabre) إلى إقامة عيد وطني مدني مخصص "لجان" غير أن تلك الدعوة تطلبت عشرات السنوات لكي تتحقق وذلك بفضل جهود "موريس باريس"(Maurice Barres) حيث استطاع جعل البرلمان يصوت ويقر بعيد وطني على شرف "جان" .

في ضوء ما سبق فلقد جسدت "جان" إيديولوجيات متناقضة في بعض الأحيان :فهي جان المسيحية الطيبة وجان الرافضة للكنيسة ،وهي التي لمت شمل فرنسا، والثائرة على السلطات القائمة والسبب في ذلك أن المؤلفين صوروها حسب قناعاتهم الشخصية ،وتنبع من "جان" حياة داخلية قوية إلى درجة أن بعضهم يراها حضورا صوفيا ودائما تقريبا-عبر التاريخ-تعددت الصيغ الدينية لظهور المتصوف الذي يحصل عادة على نفوذ تاريخي ويجد له أتباعا "عندما يدع نفر ضخم من الأشخاص أنفسهم للاقتناع برسالة هذا المنادي ، فإن مقتضى ذلك هو أن هذا المنادي الملهم يعبر –على وجه التحديد- عن تمثلات وآراء لها صفة تعويضية إزاء حالة عامة من الإحباط الروحي"[35] وبحسب "يونغ" فإنه"يوجد دائما في بداية الأديان العظمى، كما يوجد في التحركات الصوفية الصغيرة العديدة بعض الشخصيات تتميز حياتها باختبارات صوفية "[36]. وتعد "شهيدة العشق الإلهي " رابعة العدوية نموذجا آخر للمرأة الصوفية التي شغلت العديد من الناس فقد شغلت رابعة العدوية المتصوفة المعروفة – التي ولدت وعاشت "بالبصرة في الفترة مابين 717 و801م فكر كثير من الدارسين والباحثين والمؤرخين الذين اهتموا بسيرتها وجوانب حياتها المختلفة "[37]- والمقام الصوفي العالي الذي وصلت إليه وامتازت به على كل من سبقها من الزهاد والصوفيين، تلك الآفاق الجديدة التي فتحتها في تاريخ الحياة الروحية الإسلامية – عن طريق إدخال مفهوم الحب الإلهي لأول مرة في أدب الصوفية وإشاعة مفردات ومراحل هذه العاطفة الشخصية الجياشة في مناجاة الذات الإلهية.

"ويعتبر كتاب " **مرغريت سميت** " المشهور عنها " **رابعة العدوية وزميلاتها من القديسات في الإسلام** " (1928) المرجع الأساسي الوحيد منذ ذلك الوقت لأي بحث أو دراسة عن رابعة، فنجد أن الكتاب العرب أو الغربيين يرجعون لهذا العمل ، ينتقون منه أية معلومات أو تعليقات عن أسباب ومظاهر تصوف هذه المرأة الزاهدة الشهيرة، والكتاب رائد في هذا المجال كأول دراسة متكاملة في القرن العشرين عن حياة رابعة ومنهجها الصوفي بالتفصيل"[38].

ثم نبهت "سميث" مبكرا على مكانة رابعة العدوية كامرأة في الحركة الصوفية ونقلت إشادة معاصريها بمعتقداتها وأفكارها وكيف أنها حظيت في حياتها وبعد مماتها باحترام وتقدير كبير وبمكانة مساوية لزعماء التصوف المعاصرين لها من الرجال مثل: حسن البصري وسفيان الثوري وغيرهم، وتفسيرها لذلك هو أن "نشأة الروح الصوفية

قد أعطت المرأة الفرصة للوصول إلى مقام روحاني عال وبالتحديد مقام الأولياء والقديسين لأن المفهوم الصوفي للعلاقة بين العبد والعابد وربه والهدف الأسمى من ذلك – ألا وهو الفناء والبقاء في الذات الإلهية العليا – ليس فيه مجال للتفرقة بين الذكر والأنثى"[39] .

إلا أن التركيز على إعراض رابعة عن الزواج من قبل الكتاب المحدثين جعلنا ننظر وكأن هناك "خلل في هذا التصوف غير العادي أو غير السوي"، ولابد له من تفسير ما"[40] .

ولهذا كله كان نموذج "رابعة" جديرا بالدراسة لما تركته من آثار عميقة على التفكير الديني في الإسلام وبإدخالها لمفهوم "الحب الإلهي" وتعد الأدبيات التي نسبت إليها والتي تصرح بعقيدتها في العشق الإلهي تعبيرا واضحا عن ذلك الحب الإلهي:

" أحبك حبين حب الهوى وحب لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوىفشغلي بذكرك عما سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا "[41]

فكانت تسمو بعبادتها إلى مستوى الحب الخالص الطامع فقط إلى رؤية جمال الله "ما عبدته خوفا من ناره ولا طمعا في جنته، فأكون كالأجير السوء، عبدته حبا له وشوقا إليه"[42]

وعلى هذا النحو، فإن المخيال الاجتماعي خاصة الشعبي منه يفعله فعله في هذه الروايات .وفي وصف هذه النماذج التي ما هي إلا عينة صغيرة لنماذج كثيرة وعظيمة المآثر فالعامة من الناس كثيرا ما يرجعون إلى الماضي باحثين فيه عن صور لزعماء ورواد تاريخيين يشكلونهم حسب أهوائهم، وأحلامهم وآمالهم فيحولون تلك الشخصيات إلى حقيقة قريبة إلى الأساطير منها إلى الواقع. ذلك أنهم يصفون القدرات الخارقة لتلك الشخصية في صورة البطل المدهش الذي يتمتع بقدرة فائقة على إثبات المعجزات والغرائب. ولكن هذه "الفضائل والبركات، التي يطلق عليها "رودينسون" مفهوم الألق الديني الكلي أو "الكاريزم الكلي" (**Charisme Total**) إنما تتم لأن الله أراد كذلك، فأحاطها بحكمته، مما يجعل هذه الكرامات تتميز عن أفعال السحر والشعوذة"[43] وهذا الحضور الكارزماتي المهيب للمرابطة تركية يكشف لنا عن بنية المخيال الاجتماعي الذي يحافظ في تصوره للزعامة على آليات قديمة وذاتية، ويبدو الفعل الصوفي هنا "كأحد التقنيات الأكثر استعمالا لتحقيق كرامة الزعيم وتعاليه، فبواسطته يحمي ذاته من المدنس الخارجي" [44] .

وهكذا كانت المرابطة تركية –ولا زالت– توصف دائما بأنها محاطة بهالة تجعل منها شخصية جذابة في عيون العامة وخاصة المؤمنين بها والمقربين منها وهؤلاء المؤمنين هم أنفسهم الهالة التي تحيط بها إذ ينتجون مختلف البراهين والحجج للتأكيد على خارقية المرأة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهم يقبلون سلطتها الممتدة من الهالة التي هي هبة إلهية، وصفة غير طبيعية يهبها الله للإنسان، وهذه الهبة الإلهية هي حجة لا تحتاج إلى تبرير بل تبرر نفسها بنفسها لذا فإنهم يرتبطون بصاحبتها باختيارهم ويقبلون الخضوع لسلطتها باختيارهم أيضا.

الهوامش:

(*) يقول أحفاد المرابطة أنها قد ولدت قبل هذا التاريخ بكثير أي حوالي 1890 لأنها سنة 1954 شيدت إحدى الغرف و كتبت فوقها ذلك التاريخ أي 1954 و كان عمرها آنذاك حوالي 55 سنة و ربما أكثر.

(1) سليمان جوادي، المرابطة تركية، امرأة لها خوارق غريبة، "الشروق العربي" ع 96، الأسبوع من 10 إلى 17 مارس 1993، الجزائر.

(*) يقال أن الطيب كان يحيض مثله مثل أي امرأة طوال المدة التي قضاها عند المرابطة في زي النساء.

(2) سليمان جوادي، مرجع سابق.

(*) حسب مصلحة الشؤون الدينية لولاية تيارت فإن هؤلاء السويسريات أردنا الدخول في الإسلام فبعثت بهن إلى زاوية المرابطة تركية ليعلن إسلامهن هناك.

(3) سليمان جوادي ، مرجع سابق.

(*) عندما اتصلنا بزاوية المرابطة تركية بعد حوالي شهرين من زيارتنا الأولى قيل لنا أن ميمونة تزوجت وهي الآن في بيت زوجها.

(*) رياح قوية مصحوبة بالرمال كناية عن قوة المرأة.

(**) المقدم : هو خادم الولي الصالح المقرب منه أكثر من الآخرين و يبقى بجوار ضريح الولي بعد وفاته، و يرث أبناءه بعد ذلك المنصب.

(4) عبد المحسن (صالح)، نفس المرجع، ص 77.

(5) نفس المرجع، ص 78.

(*) نستخدم كلمة مؤمنين للتعبير عن الأفراد الذين يعتقدون و يتأثرون بالولي و يكنون له نوعا من الولاء و التقديس.

(6) خماش (سلوى) ، بدران (إبراهيم) ، دراسات في العقلية العربية (الخرافة)، دار الحقيقة، بيروت، ط 2، 1979، ص 133.

(7) Emile (Durkheim), Les règles de la méthode sociologique, Alcon, Paris, 1901

(8) عبد العاطي (السيد)، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998، ص 340.

(9) شقرون(محمد)، الدين في المجتمع العربي ، مرجع سابق ،ص 127

(10) علي (نبيل) ، الثقافة العربية و عصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، ، الكويت، 2001، ص 410.

(11) العشوي (مصطفى) ، "الإنسان الكامل في الفكر الصوفي "دراسة نقدية" "، مجلة التجديد ، العدد 07 فيفري 2000، الجامعية الإسلامية العالمية بماليزيا، ص15.

(12) خماش(سلوى)، بدران (إبراهيم) ، دراسات في العقلية العربية : الخرافة، مرجع سابق، ص ص 133 - 144.

(13) أركون (محمد) ، الفكر الإسلام، نقد و اجتهاد، تر : هاشم صالح ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1993، ص 155.

(14) الجوهري (محمد) ، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص 55.

(15) ابن خلدون(عبد الرحمان) ، المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، مصر، د.ت، ص ص 95 – 120.

(*) نحن لخضناها لأن القصة طويلة.

(16) عبد المحسن(صالح)، الإنسان الحائر بين العلم و الخرافة مرجع سابق، ص ص 17 – 19.

(17) Luding Von Bertalanffy, Théorie générale des systèmes, Traduit par : jean Benoît Chabrol, Dunod ,Paris, 1973, P :201.

(18) (Michel), « L'imaginaire adulte de la mort comme fonction de l'âge et Formaget de sexe », l'année sociologique, n° 34, 1984, P : 202.

(*) للماء قيمتان في المجتمع العربي الإسلامي : قيمة نصية مقدسة و هو الذي قال فيه القرآن "و جعلنا من الماء كل شيء حي" و قيمة أنثروبولوجية تتمثل في إعطاءه القداسة إذا تعلق بولي صالح.

(19) زيعور(علي) ، التحليل النفسي للذات العربية أنماطها السلوكية و الأسطورية، دار الطليعة، بيروت، ط 13، 1982، ص : 131.

(20) زيعور(علي) ، التحليل النفسي للذات العربية ، المرجع السابق، ص 131.

(21) كرمن (البستاني)، النساء العربيات، مكتبة صادر، بيروت، دت، ص 125

(*) بروفيسور في جامعة أمريكا، خبير بالأحلام.

(22) آن (فراداي)، الأحلام و قواها الخفية، تر : عبد العالي الجسماني، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط 1، 1995، ص 53.

(23) نفس المرجع، ص 69.

(24) سيفموند(فرويد)، الطوطم و التابو، تر : بوعلي يس، دار الحوار للنشر و التوزيع، دمشق، ط 1، 1983، ص : 118.

(25) خماش(سلوى) ،بدران(إبراهيم) ، دراسات في العقلية العربية (الخرافة)،مرجع سابق، ص 297.

(26) للمزيد من التفصيل أنظر: بن يوسف (برهان مهلوبي)، "مكانة الخيال في "نظرية المعرفة عند ابن سينا"، حوليات الآداب و العلوم الاجتماعية، الرسالة 145، الحولية العشرون، 1999 – 2000، ص ص 69 – 90.

(27) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، مرجع سابق، ص : 106.

(*) المانا : كلمة بولينزية تعني القوة تشير إلى القوة الخفية التي تعتقد بعض الديانات البدائية أنها تحرك و تمنح الإنسان كل الملكات الطبيعية و ترتبط هذه القوة غالبا بشخص يوجهها أو بأرواح الموتى.

(28) يونغ (كارل) ، جدلية الأنا و اللاوعي، تر : نبيل محسن ، دار الحوار للنشر و التوزيع، سوريا، ط1، 1997، ص 175.

(29) خماش (سلوى) ، بدران (إبراهيم) ، دراسات في العقلية العربية، مرجع سابق، ص 149.

(30) زيعور(علي) ، التحليل النفسي للذات العربية، مرجع سابق ص 173.

(*) استعملنا صفة المؤنث بينما استعمل الكاتب صفة المذكر نظرا لضرورة العرض الذي نقوم به.

(31) (Nafissa) , L'enfant d'hier ; L'éducation de l'enfant en milieu Zerdoumi traditionnel Algérien, Maspero, Paris, 1970, p 127.

(32) سيفموند (فرويد)، الطوطم و التابو، مرجع سابق، ص ص100-101

(33) غامري (محمد حسن) ، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة "علم الإنسان"، د م ج ، الجزائر، 1991، ص 125.

(*) من النماذج العربية يمكن ذكر السيدة زينب، السيدة نفيسة، ومن النماذج الجزائرية يمكن ذكر يما قورايا، القمراوية.

(34) سيمون (فريس) ،نفس المرجع، ص 40.

(35) رؤوف(عبيد)، في الإلهام والاختبار الصوفي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1988، ص 130.

(36) نفس المرجع، ص 129.

(37) أبو بكر (أميمة) ، "تفسير التفسير، حالة رابعة العدوية"، مجلة هاجر كتاب المرأة، سينا للنشر، ط1، 1993، ص 11.

(38) نفس المرجع، ص12.

(39) نفس المرجع، ص16.

(40) نفس المرجع، ص 17.

(41) عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، 1993، ص70.

(42) نفس المرجع، ص68 .

(43) الجو يلي (محمد)، الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والديني ، سراس للنشر، تونس، 1992، ص122.

(44) نفس المرجع، ص 115.

قائمة المراجع:

1. الجو يلي (محمد)، الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والديني ، سراس للنشر، تونس، 1992
2. عرفان عبد الحميد فتاح، نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، دار الجيل، بيروت، 1993
3.) أبو بكر (أميمة) ، "تفسير التفسير، حالة رابعة العدوية"، مجلة هاجر كتاب المرأة، سينا للنشر، ط1، 1993